

((المقدمة))

نشأة شادي

في أسرة تتسم بالتواضع المادي وفي ظل حياة أسرية صعبة ينشأ الشاب شادي فبمجرد ما أفاق من مرحلة الثانوية تسلم دوره في تحمل المسؤولية برغم حداثة سنه بالتضحية ببعض سنوات من عمره وتأجيل حلم الالتحاق بالجامعة اسوة بزملائه لتحقيق رغبة والدته لاسيما وهي تعاني من مرض مزمن ضاربًا بذلك المثل في التضحيات التي قلما يقدم عليها فتي في مرحلته العمرية، ولم يتردد حينما وجد فرصة متاحة لتحقيق حلم والدته البسيط وادخال السعادة إلى قلبها مما كان له الأثر الايجابي لتنعم به لبضع سنوات قبل رحيلها فقد كان يحبها كثيرًا.

أما والده فكان يعمل موظفًا بسيطًا وقد احيل للتقاعد مبكرًا بقرار طبي لمرض مزمن اصابه من أثر التدخين.

تلك الحياة التي تعارضت مع تحقيق حلم شادي بتكملة دراسته الجامعية ففي ظل تلك النشأة لجأ إلى الالتحاق بوظيفة حكومية وكان له شقيقين أصغر منه سنًا فهو الشقيق الأكبر في الترتيب العمري بفارق أربع سنوات بين كل منهم والآخر وورث أيضًا عن امه طفل رضيع وضعته قبل رحيلها بأيام وتركته ابن أربعون يومًا وضعه القدر في طريقه ليكون سببًا آخر لتأجيل حلمه للمرة الثانية وفي الوقت الذي هم فيه أن يحقق ذلك الحلم ويكمل مسيرته بعد تحقيقه رغبة والدته فوجب عليه لزاما تأجيله مرة أخرى لمساعدة أبيه وشقيقه في تربية أخيه الأصغر فتغلب الواجب على رغبته في تحقيق حلمه حتى ضحكت له الدنيا بقبوله بالجامعة وكافأته بنادين ثم أبكته ثم أضحكته ثم أبكته. فدوام الحال من المحال..

تمهيد الفصل الأول

يقف على سلم الطائرة الشاب شادي وقد أتم عامه العشرين وهو عائدًا من دولة عربية حيث عمل بها ثمانية عشر شهرًا طاله فيها ماطاله وهو يعمل بكد وتعب وجهد وهو بمقتبل عمره للحصول على المقابل الذي يمكنه من تحقيق حلم ليس له فيه ناقة ولا جمل أنه حلم والدته التي عانت طويلًا في حياتها من سبل العيش واقامتهم في تلك الشقة الصغيرة ذات المساحة التي لا تتعدى الثلاثون مترًا والمكونة من حجرتان وصالة وحمام صغير مساحته مترًا واحدًا مربع دون وجود مكان مخصص للطبخ وكانت تلك الوالدة كثيرًا ما تعاني بجسدها الممتلئ حيث يصيبها الغثيان في كل مرة عند استعمال الحمام وأثناء خروجها منه وجبينها يتصبب عرقًا ويكانها في النزاع الأخير. نظرًا لضيق المكان.

فكان كلما رآها شادي تتصبب عرقًا صعب عليه حالها. وكان في كل مرة يتمنى أن يبتسم له الحظ يومًا ويحظى بفرصة يستطيع اقتناصها برغم حداثة سنه في هذا الوقت ويفعل لها شيء يسعدها ويدخل السرور والراحة إلى قلبها خاصة وأنه ذات يومًا سمع حديث دار بينها وبين والده وهي تقول له أن أمنية حياتها أن تعيش في شقة أوسع من تلك التي يعيشون فيها بها حمام ومطبخ بمساحة كبيرة لتمارس فيها حياتها ولو كانت تلك آخر أيام حياتها.

حتى أتت له تلك الفرصة فقد كان له خال يعمل بدولة عربية وذات مرة وأثناء محادثته لوالد شادي طلب منه الوالد أن يستضيف ابنه شادي للعمل معه بالخارج في فترة الاجازة، وكان شادي بالكاد انهى المرحلة الثانوية ويتأهب لدراسته الجامعية التي لم يحن موعدها بعد حتى وجد أن خاله قد لبي تلك الرغبة عن والده وارسل لهم خطابًا يؤكد فيه استعدادده لقبول شادي عنده في ضيافته فترة الصيف وذلك ردًا لجميل شقيقته الكبرى والددة شادي التي عملت على إعانته حينما اراد السفر للخارج منذ بضع سنوات، ولم يكن يملك المال الكافي لتحقيق ذلك. ولكنها بمجرد أن أتى إليها شقيقها وطلب منها مساعدته فلم تتردد حتى بادرت بالذهاب إلى أحد اقربائهم في بلدتهم لتتنازل له عن ارثها من والدتها مقابل اعطاء شقيقها المال الكافي ليتمكن من السفر وتحقيق ذاته بالرغم من أنها في ذلك الوقت كانت هي وأسرتها احوج ما يكون لهذا المال ولكنها تنازلت عنه لشقيقها لمعاونته على السفر لتساعده في تحقيق ما يتمنى.

هذا ما اكتنزه الشقيق لشقيقته الكبرى. ولما أتت تلك اللحظة التي تمكنه من رد الجميل لشقيقته لم يتردد وارسل إليهم دعوة لاستضافة شادي. مع وعدًا منه بان يرعاه ويوفر له عمل مناسب يستطيع من خلاله جني بعض المال ظنًا منه أن هذا المال سيكون عونًا له في دراسته الجامعية ولكن كان لشادي غرض آخر في نفسه من تلك الرحلة، فقرر شادي على الفور حين علم بأنه قد تم قبول طلب دعوته بتلبية رغبة أبيه أن يقتنص تلك الفرصة. وقرر بأن يسافر إليه وعلى الفور قام بتجهيز اوراق السفر.

وجاءت اللحظة الحاسمة التي سيقوم فيها بوداع والدته ووالده وشقيقه وأصدقائه. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته ليبتعد عن منزله وأسرته.

وقام بوداع والدته وشقيقه وهو كله أمل أن يعود يومًا ومعه المال الكافي لتحقيق رغبة أمه.. حيث كان هذا هو هدفه السامي الذي سعى إليه لتحقيقه. ظنًا منه أنها فترة قصيرة فترة الأجازه الصيفية وسيعود.

وسافر شادي إلى المجهول الذي ينتظره بالخارج.. حيث قضي المدة المقررة له في جواز سفره المؤقت وهي ستة أشهر وتخطاها لتمتد لما يقرب من السنتين وهو يعمل بجهد وعناء تارة مع خاله في اعمال الانشاءات الكهربائية بالمنازل الحجرية بريف تلك الدولة العربية التي يقيم بها خاله وتارة أخرى حين إنتقل للعمل مع قريب لهم بالعاصمة حينما شق عليه العمل مع خاله بدون أجر لمدة ثلاث أشهر وبالحث المجهد مع الاصرار أن حالفه الحظ للعمل فترتين في فترة النهار كإداري بمكتب للإنشاءات الهندسية مع قريب لهم يقيم في العاصمة وفي المساء يعمل بمطعم سياحي حتى أنه كان يعود من عمله المسائي متأخرًا في اطراف نهار اليوم التالي ويمكث بضع سويعات قليلة في مسكنه يسترق فيها قسطًا من النوم ويبادر بالذهاب مرة أخرى لعمله الصباحي بمكتبه. وهكذا استمر حاله لأكثر من عام ونصف دون أن يكل ولا يمل حتى يتمكن من جني المال الكافي لتحقيق ما يصبوا إليه.

ومرت تلك المدة كالحلم فسرعان ما مضت بلحظات من المعاناة والألم والجهد والمثابرة والاجتهاد والعناء والحرمان حتى حانت لحظة عودته إلى أرض الوطن وهو يحمل معه المال الذي جناه من تلك الرحلة الشاقة، ويحمل على كتفه أيضًا شهادة يفتخر بها وهي كوسام على صدره بحصوله على وسام الرجولة من الطبقة الأولى لنجاحه في جني ثمار عمله بالخارج تاركًا وطنه وأهله وأحبته.

فتلك المدة التي قضاها وهو في المرحلة العمرية المبكرة كانت محض اعجاب كثير من المحيطين به بالخارج. والتي اكتفي فيها بأن جني ما يكفي من المال لتحقيق حلم والدته التي باتت تحلم به دائمًا وتأمل تحقيقه والعودة لمباشرة حياته الطبيعية والسعي وراء البحث عن الفرص المتاحة لتحقيق ذاته وتعويض مافاته واللاحق بزملاء مرحلته العمرية وبناء مستقبله الذي بات يحلم به.

((الفصل الأول))

(المشهد الأول)

المكان: مطار القاهرة

الزمان: منتصف عام 1986

شادي أثناء نزوله من على سلم الطائرة ويتطلع لمن يكون في انتظار قدومه، وكان يمتلكه الخوف من أن يضبط أمنياً؛ لأنه قد تجاوز المدة القانونية المصرح بها في جواز سفره المؤقت، حيث لم يتمكن من العودة؛ لأنه لم يكن قد استكمل مهمته التي سافر لأجلها لذا اشتد خوفه من ضبطه بالمطار أثناء وصوله لتجاوزه تلك المدة القانونية المؤقتة فتلك المدة كانت قد صرح له بها للسفر بعد انهاء المرحلة الثانوية، ولكنه نظر في صالة الوصول وتنبه لصوت أحد رجال الأمن وهو يحمل في يده لوحة مكتوب عليها اسمه، وأخذ يردد اسمه، شادي أشرف، شادي أشرف..

ولأنه كان آخر النازحين من الطائرة لم يجد رجل الأمن من يقف أمامه بعد نزول جميع الركاب القادمين بالطائرة سوي شادي ليسأله.

رجل الأمن: عفواً، هل أنت شادي أشرف؟

شادي: يرد عليه وهو يتلعثم بالكلام، نعم أنا هو.

رجل الأمن: حمداً لله على سلامة الوصول بإمكانك أن تعطيني جواز سفر، هل معك حقائب وأمتعة ببطن الطائرة، غير التي بيدك؟

شادي: نعم، معي حقائب بالطائرة.

رجل الأمن: إذن، أذهب أنت لإحضارها من على سير الحقائب وأنا سأنهي لك إجراءات الوصول، حمداً لله على سلامتكم.

شادي يتساءل في دهشة: عفواً سيدي هل لي أن أسأل، ما الأمر، ومن أنت؟

رجل الأمن: أرسلني إليك والدك لإنهاء إجراءات الوصول، وهو ينتظرك وكذلك أخوتك وأقاربك بصالة الوصول، فتوجه أنت إليهم، وأنا سأنهي لك إجراءات الوصول.

شادي: الأمر هكذا إذن، فأنا أشكرك.. لاح شادي بيده للرجل مبتسماً، وهو يضع يده على صدره من هول ما ظن وما خافت منه نفسه قبلاً.. وقال محدثاً نفسه: ربي لقد ظننت أن يحدث ليّ سوءاً فأخلفته، أن ذلك من دعاء أُمي.

ذهب شادي إلى صالة الوصول لاستلام الحقائب وتجول بنظراته يميناً ويساراً ليبحث عمن أتى لاستقباله. كان شادي يرتدي كاب على رأسه يخفي به شعره الطويل المنسدل على جبينه الناصع البياض

ويرتدي بذلة جينز كأملة ويخفي وجهه بنظارة سوداء فيوحي لمن يراه أنه اجنبي وليس بعربي، ألقي بنظره على المتواجدين بساحة الانتظار للعائدين من الخارج فتعرف على والده وشقيقه الأصغر منه في الوقت الذي يجول نظرهم هنا وهناك للبحث عنه وهو ناظر إليهم محدثًا نفسه وهو ينظر إلى وجوههم رباها ماذا حدث لقد تغيرت الوجوه كثيرًا أفي تلك الفترة القصيرة التي قضيتها بعيدًا عنهم يتغيرون بهذا الشكل فنظر إلى شقيقه الأصغر وهو ضاحكًا موصفا له. رياه هذا شقيقي الاصغر.. وقد ظهرت عليه علامات البلوغ. فقد تغير قلبا وقالبا فأصبح طويل القامة ممتلئ الجسم منتفخ الوجه كأنه كان يأكل طعامي المتوفر بالمنزل.. وهذا شقيقي الأوسط وقد أصبح مفتول العضلات طويل القامة شابا يافعًا يعتمد عليه.

ولكنهم لم يتعرفوا عليه. وهو يقف أمامهم.. حتى نادي شادي على شقيقه الأصغر فصاحوا جميعًا أنه شادي، قائلاً له شقيقه الأصغر: نحن لم نتعرف عليك من هذا اللوك وما أحلى حرارة الاشتياق. ومكث بضع دقائق حتى بادر بالسؤال عن حبيبة قلبه أمه وما حالها، رد الجميع عليه أنها تنتظرك بالمنزل على أحر من الجمر، فقد تركناها وهي تجهز لك من الطعام ما ألد وطاب؛ لأنها تعي مدى اشتياقك لطعامها التي كانت تجهزه لك بيدها وكنت كثير الثناء لمذاقه اللذيذ أتذكر.

شادي: أجل.

فبقدر ما كانت الحياة بينهم بسيطة بقدر ما كانت تغمرهم السعادة والهدوء وراحة البال لرضاهم بالقليل من القوت وسبل العيش.

حامدين ربهم على ذلك، انتظر شادي على سير الحقائق لاستلام حقائبه وقام باستلامها وتأكد تمامًا من عدم المسائلة القانونية لتخلفه عن مدة التصريح المؤقت بجواز سفره فكان متوجسًا خوفًا من أن يحدث له مكروه أثناء وصوله؛ لأن الكثير من اصدقائه أكدوا عليه أن يحتاط من ضبطه وإيقافه لتخلفه عن موعد طلبه لأداء الخدمة العسكرية ولكن الحمد لله أن الأمر تم بسلام، وخرج لاستقبال ذويه واتجهوا صوبًا إلى محل اقامتهم ببلدتهم لملاقاة الحبيبة إلى قلبه أمه بعد طول اشتياق. ظل الحديث مع شقيقه ووالده للاطمئنان على حالهم وهو ينظر بعينه من نافذة السيارة ويتخيل لحظة احتضانه أمه وينتظرها، ويتأمل في كيف أصبح شكلها بعد تلك المدة التي قاربت على العامين.. وهو يحدث نفسه هل تغير شكلها لأنها كانت تمرض كثيرًا وربما أثر ذلك على ملامح وجهها. أحمد الله أني عدت في هذا الوقت لأني كثيرًا ما انتابني الكوابيس بالأحلام بأني حينما أعود إلى وطني لن أجدها. من كثر ما كانت تعاني من أزمت صدرية حتى أنه يتذكر أنها كانت في ذات المرات ستنهي بحياتها. لولا تمسكها بالحياة لترى وتعيش أحلام الأمومة في أبنائها بأن تراهم سعداء وتعيش معهم لحظات السعادة والإطمئنان عليهم وخاصة الإبن الأكبر المقرب إلى قلبها شادي.

الذي كانت تتمني دائمًا وتدعوا ربها في صلاتها أن تحيي ويطيل في عمرها حتى تطمئن عليه وعلى مستقبله وبالأخص هو عن أشقائه؛ لأن شادي كان الإبن الأكبر وأول فرحتها.. وكان له معزة خاصة عندها؛ لأنه الأبن الحنون البار الساعي دائمًا إلى إسعادها والعمل على راحتها، وكثيرًا ما كان يسعى دائمًا لإبتكار وتوفير وسائل الراحة لها وقلما كان